حياة النبي والمشكلة الاجتماعية لأصول الاسلام (*)

ماكسيم رودنسون
ترجمة وتعليق د. زينب رضوان

يمهّد لهذا المقال بالقول، بأن حياة محمد نبي الاسلام قد خصص لها عديد من الكتابات والدراسات النقدية المتعلقة بأفعاله وكلامه، وأنه في جزء يسير من هذا المقال سيتعرَّض لحياة محمد منتقلاً منها الى معالجة أبعاد أخرى.

فينبِّه إلى واقعة تاريخية لها دلالتها، وهي أن العرب في عام (٦٢٠) من تاريخ المسيحية، كانوا شعباً متأخراً للغاية يعيش في شبه جزيرة منعزلة على حافة العالم المتحضِّر في هذا العصر، تسود فيهم الفوضى القبلية، وليست هناك وحدة تجمع بين تلك القبائل، وليست هناك سلطة واضحة يخضعون لها.

وكانت الجزيرة العربية في ذلك الوقت تقع بين جيران، لهم سلطة عالمية مرموقة، وهم الامبراطوريتان البيزنطية والفارسية بكل اهتماماتها ذات الطابع الاستعماري المؤثر على قراراتها.

وبعد ثلاثين عاماً فقط، أي في عام (٦٥٢ م)، تغيَّر الأمر. حيث وجدت الامبراطورية العربية التي امتدت إلى ليبيا وايران وشملت مصر وسورية والعراق وفارس؛ بينما نجد أن الامبراطورية الساسانية (الفارسية)، قد دمرت تماماً وحرمت الامبراطورية البيزنطية من أهم أقاليمها.

وبعد مائة عام أخرى، أي في عام (٧٥٠ م)، وصلت الامبراطورية العربية إلى الهند واتسعت حتى الصين ووصلت إلى جنوب فرنسا. وأعتقد أنه لا ضرورة للإشارة هنا إلى الدور الفعَّال الذي أدَّاه الاسلام، هذا الدين الذي يقدَّر عدده بنحو ثلاثمائة وخمس وستين مليوناً من المؤمنين، هذا الدين الذي يسيطر على الحياة الاجتماعية في عدد كبير من البلاد، ويغطي جزءًا هاماً من سطح الكرة الأرضية.

(★) مقال بالفرنسية مأخوذ من مجلة **ديوجين** ـ العدد ٢٠/أكتوبر ١٩٥٧، باريس.

(★★) زينب رضوان: خبير بالمركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية.

ولكن كيف يتسنى لنا شرح ظاهرة تاريخية على هذا القدر من الأهمية، وبهذا الحجم من النتائج الكبيرة؟. وإذا كانت التفصيلات في هذا الشأن، تدور حولها مناقشات لانهائية، إلا أن الخطوط العامة لا يعتريها الشك. فمن الثابت أن هذا الفرد العربي يرجع في أساسه إلى نبوة النبي محمد، ولنسترجع سريعاً معاً الملامح الرئيسية لحياة هذا النبي:

ولد محمّد حوالى عام (٥٧٠ م) ـ حسب ما يتناقل ـ في مكة، المركز التجاري والديني للحجاز، وينتمي إلى قبيلة قريش ـ كالغالبية العظمى للمكيين ـ وبصفة خاصة لقبيلة هاشم. وهو ينحدر من أسرة يرجح أنها كانت ذات سلطة في القديم، ولكنها ذو تأثير ضعيف. ولقد مارس محمد قيادة القوافل التجارية لأرملة غنية هي خديجة التي تزوجته في النهاية.

وفي حوالى عام (٦١٠ م)، كانت بداية الوحي له، حيث ظهر له الملاك جبريل. ولقد بدأ دعوته علناً حوالى عام (٦١٣).

والرب في العربية هو الله، وقد أوحى له بالنصوص التي أبلغها للمقربين منه. ومجموع تلك النصوص هي ما تكوّن ما يسمى بالقرآن، وهو بالنسبة للمسلمين كلام الله؛ وكان محمد يعلن التعاليم التي يتلقاها في الحال ولم تواجهه في البداية معارضة. فقد آمن به أفراد أسرته وأصدقاؤه، وبصفة عامة الفقراء أو متوسطو الحال. أمّا أصحاب السلطة والأغنياء، فكانوا خارج هذه الدائرة المؤمنة به.

ثم بدأت المعارضة تتفجر. وفي عام (٦١٥) هاجر كثير من أتباعه المضطهدين إلى أثيوبيا البلد المسيحي. ثم صار الأمر على نحو سريع غير محتملٍ في مكة بالنسبة لمحمد وللمسلمين الأوائل.

وقد قام محمد بإجراء حوار ومناقشات مع بعض أهالي المدينة أو يثرب، وهي منطقة تبعد حوالى (٤٧٠ كلم) شمالي مكة. وفي عام (٦٢٢ م)، هاجر إلى المدينة مع حفنة من الموالين له. وهذه هي الهجرة التي تشير إلى بداية العصر الاسلامي.

وعندما هاجر محمد إلى المدينة، وجد أنهم يشغلون جزءًا منها، وقد تنازل لهم عن هذا الجزء؛ وأقام في المدينة صياماً على غرار صيام اليهود الخاص بصيام الفقرات؛ وأمر المسلمين بالتوجه عند الصلاة نحو القدس، إلاّ أن اليهود كانوا مدركين أنهم شعب الله المختار، لذلك فقد رفضوه (أي محمد)، ثم كُشف النقاب أيضاً بالنسبة للمسيحيين عندما اختار أن يكون النبي العربي المصطفى، وفي نفس الوقت النبي الذي ينهي سلسلة الأنبياء المبعوثين من الله إلى الشعوب المختلفة، وأنه سيكون التوجه نحو الكعبة للصلاة والحج إلى مكة والصوم محدداً بشهر رمضان.

ويجب هنا أن نقف وقفة قصيرة، لنناقش أمراً دأب اليهود على ترديده، وهو المتعلق بتوجّه المسلمين إلى بيت المقدس عند الصلاة بتحويل القبلة واختصاص المسلمين بقبلة خاصة بهم يتجهون إليها . كان التوجه إلى بيت المقدس سبباً في اتخاذ اليهود إياه ذريعة للاستكبار عن الدخول في الاسلام، إذ أطلقوا في المدينة ألسنتهم بالقول، بأن اتجاه محمد ومن معه إلى قبلتهم في الصلاة دليل على أن دينهم هو الدين وقبلتهم هي القبلة، وأنهم هم الأصل ـ فأولى بمحمد ومن معه أن يفيئوا إلى دينهم لا أن يدعوهم إلى الدخول في الاسلام. وهذا هو ما قرأنا معناه من كاتب المقال ـ ومن المعروف أنه يدين باليهودية ـ .

أمّا عن حكمة تحويل القبلة، فهي كما نستخلصها من النص القرآني:

لقد كان تحويل القبلة أولاً عن الكعبة الى المسجد الأقصى لحكمة تربوية، أشارت إليها (الآية ١٤٣ من سورة البقرة): ﴿ . . . وما جعلنا القبلة التي كانت عليها إلاَّ لنعلم من يتّبع الرسول ممن ينقلِب على عَقبيهِ﴾ . فقد كان العرب يعظمون البيت الحرام في جاهليتهم، ويعدونه عنوان مجدهم القومي؛ ولما كان الاسلام يريد استخلاص القلوب لله، وتجريدها من التعلّق بغيره وتخليصها من كل نعرة وكل عصبية لغير المنهج الاسلامي المرتبط بالله مباشرة . . . فقد نزعهم نزعاً من الاتجاه إلى البيت الحرام، واختار لهم الاتجاه فترة إلى المسجد الأقصى ليخلص نفوسهم من رواسب الجاهلية ومن كل ما كانت تتعلق به في الجاهلية، وليظهر من يتبع الرسول ـ اتباعاً مجرداً من كل إيحاء آخر، اتباع الطاعة الواقعة الراضية المستسلمة ممن ينقلب على عقبيه اعتزازاً ـ نبذة جاهلية تتعلّق بالجنس والقوم والأرض والتاريخ . . . حتى إذا استسلم المسلمون واتجهوا إلى القبلة التي وجّهّهم إليها الرسول (صلى الله عليه وسلم)؛ وفي الوقت ذاته، بدأ اليهود يتخذون من هذا الوضع حجة لهم، صدر الأمر الالّهي الكريم بالاتجاه إلى المسجد الحرام، (الآية ١٤٤ ـ سورة البقرة): ﴿قد نرى تقلُّبَ وجهك في السماء فلنولينك قبلةً ترضاها فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيثُ ما كنتم فولُّوا وجُوهَكم شطره وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عمّا يعملون﴾ . ثم ربط قلوب المسلمين بحقيقة أخرى هي حقيقة الاسلام، وأن هذا البيت بناه ابراهيم واسماعيل ليكون خالصاً لله . وليكون تراثاً للأمة المسلمة التي نشأت تلبية لدعوة ابراهيم ربه أن يبعث في بنيه رسولاً منهم بالاسلام الذي كان عليه هو وبنوه وحفدته (من الآيات ١٢٤ ـ ١٣٣ سورة البقرة) . فتحويل قبلة المسلمين إلى المسجد الحرام الذي بناه ابراهيم واسماعيل ودعيا عنده ذلك الدعاء الطويل ـ الوارد في الآيات السابق الاشارة لها من سورة البقرة ـ يبدو في هذا السياق، هو الاتجاه الطبيعي المنطقي مع دراسة المسلمين لدين ابراهيم وعهده مع ربه .

ومما يؤكد أن الأمر بتحويل القبلة هو أمر آلهي وليس من أقوال محمد الرسول، أن هذا الأمر سبقته آية

يقول فيها الرحمن: ﴿سيقول السفهاء من الناس ما ولآهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قُلْ لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ . ومع نزول هذه الآية وقراءتها وتداولها والتعبد بها على مسمع من اليهود - إلا أنهم لم يستطيعوا أن يمتنعوا عن الخوض في الحديث عن تحويل القبلة على الرغم مما ورد بالآية من وصفهم بالسفه (سيقول السفهاء من الناس . . .)، فلو كان محمداً هو القائل ما كان ليأمن أن يمتنع اليهود عن الخوض في هذا الحديث حتى على الأقل من باب تكذيب قوله . ولكن لأن القائل هو الله المهيمن على أفعال وأقوال البشر من الأزل إلى الأبد، لذلك خاضوا في هذا الحديث ولا يزالون يخوضون حتى بعد نزول هذه الآية بأربعة عشر قرناً من الزمان، كما قرأنا من خلال السطور السابقة لهذا المقال .

نعود بعد هذا، لنتابع معاً سطور المقال حيث يذكر السيد رودنسون أن محمداً بدأ ينظم مجتمعه في المدينة، وأن راعي الأغنام أصبح على آخر الزمان مشرعاً . ولقد أوحى الآله بقواعد الحياة الاجتماعية . . . وحكم القبائل في المدينة وأصبح سريعاً سيداً حقيقياً لهذه المدينة . فقلّب القرى ضد قبيلة قريش، قبيلته، التي كانت لها السيادة في مكة .

وكانت له انتصاراته وهزائمه، ولكن شيئاً فشيئاً بدأت القبائل العربية تلتف حوله معاهدينه على اعتناق الاسلام . أمَّا اليهود فقد أبعدوا أو قتلوا . وبالنسبة للقرشيين، فقد كان عليهم أن يعودوا إلى التوبة، ولهذا فقد تعاهدوا مع محمد .

وفي عام (٦٣٠) دخل محمد مدينته، التي وُلد فيها، منتصراً؛ واستطاع أن يرسل غزوات حتى حدود بيزنطة . وتوفي تقريباً حوالى عام (٦٣٢) . وعقب وفاته تمت غزوات أوصلت الاسلام سريعاً حتى سمرقند وحتى بواتييه .

تلك باختصار شديد مجموع الوقائع العامة لحياة محمد، ولكن كيف يتأتّى لنا أن نفسرها؟

من المتعارف عليه من وجهة النظر التقليدية اعتبار الانتصارات العربية أحداث دينية بحتة، فالمعتنقين الديانة الجديدة يريدون إخضاع الشعوب التي تعتنق ديانات أخرى إلى هذا الدين . ولكن، في بداية القرن التاسع عشر فقط، بدأ يثار تساؤل حول ما إذا كان الدافع الديني لم يشكّل سوى غطاء أيديولوجي أو قناع روحي أو ديكور ظاهري . . . لضرورات أكثر عمقاً .

وبصفة خاصة، فإن المستعرب الايطالي كيتاني (Caetani) وعالم الاسلاميات الالماني الكبير س . ح . **بيكر** (Becker) قد شرحا في السنوات الأولى من القرن العشرين فكرة أن غزو العرب لخارج جزيرتهم الأم، ترجع أساساً إلى ضرورات اقتصادية مماثلة لتلك الدوافع التي لم يكن لها أي طابع ديني على أيِّ وجهٍ من الوجوه . ويعلّق

السيد رودنسون على هذا القول، فيذكر أنه من الواضح أن التوسع العربي لم يأخذ هذا الشكل الغازي والانتصار على الصعيد العالمي، إلاَّ بعد تحوُّل الجزيرة العربية إلى الاسلام بفضل دعوة محمد.

ولكن هذين الكاتبين، لم يريا رابطة بين هاتين الواقعتين. فبالنسبة لهما يعتبران أن رسالة محمد قد تحدَّدت من خلال تطوُّر ديني بحت، نما في إدراكه وعندما وصل وجدانه إلى مرحلة نضجت فيها الفكرة، قام بإبلاغ دعوته دفعة واحدة. ثم وجد مصادفة تبريراً أيديولوجياً لدوافع التوسُّع العربي، تلك الدوافع التي ترجع في أساسها إلى أسباب اقتصادية؛ وعلى أية حال فإننا سنرجىء مناقشة هذا الرأي الآن على الأقل بالنسبة للترتيب التاريخي، ونعود ثانية إلى واقعة النبوة. وبالنسبة لهذه الأخيرة، فإن هناك تصورين لهما الأولوية في التفسير:

التصوُّر **الأول**، وهو الأكثر شيوعاً، أو هو الوحيد المألوف، وهو القائل بأن هذه الثورة الدينية البحتة تمَّت في نطاق ديني وبدون أن يكون لها علاقة بأي ظواهر أخرى.

والتصوُّر **الثاني**، وهو الذي يرى أن هذه الحركة الدينية كان لها بواعث وأغراض غير دينية.

ويذكر السيد رودنسون بالنسبة للتصوُّر الأول أمرين. **أحدهما**: إن الديانات غير العربية كان لها تأثيرها الذي أضفته على الروح الدينية لمحمد، من خلال أفكارها وخبراتها. وإن هناك العديد من الدراسات التي تمَّت في هذا الصدد، توضح تأثير كل من اليهودية والمسيحية على النبي. أمَّا **الأمر الثاني**، الذي يذكره، فيستعيره من بوسكين. ومفاده أن السند الوحيد الذي يمتلكه الاسلام يكمن في قوة شخصية محمد، أما الوسط الذي انطلقت منه الدعوة فكان ذا قوة ضعيفة كسندٍ للاسلام، أو لم تكن له قوة على الاطلاق.

وقبل أن ننطلق مع السيد رودنسون إلى التصوُّر الثاني، الذي يرى بمقتضاه، أن هذه الحركة الدينية كان لها بواعث غير دينية. ونتمهل هنا قليلاً لنناقش الرأيين اللذين تضمنهما التصوُّر الأول.

ـ الأمر **الأول**: وهو المتعلق بتأثير الديانتين المسيحية واليهودية على الاسلام. وعلينا أن نستعرض معاً إمكانية وصول هذه الاتجاهات إلى الرسول لتحديد مدى معرفته بها، ونقله عنها إذا جاز لنا القول. ثم نبحث عن صور هذا النقل إن وجدت. وعلى هذا الأساس، نقول أنه بناء على ما هو معروف، فقد كان يوجد في ضواحي مكة بعض أفراد من المغامرين الرومان، أو الزنوج الأحباش (بائعو نبيذ)، أو كادحون يقطنون الأحياء المنزوية. ويقال أيضاً، إن الانجيل دُرِّس في الحانات لعقليات خام. فهل تم التقاء محمد بالأفكار الدينية في هذه الأماكن؟.

وفي الإجابة على هذا التساؤل، نجد أنه ليس هناك وثيقة واحدة عن علاقات فعلية لمحمد من هذا النوع. إلى جانب أن لدينا عديداً من الأسباب، تحول دون أن نأخذ مأخذ الجد إمكان وجود مثل هذه العلاقات. ففي المقام الأول، نجد أن شواغل الرسول قبل بعثته كانت معروفة ومحددة، إذ يقدِّم لنا التاريخ الثابت المؤكد هذه

الشخصية، وهي تتحرَّك على التوالي في أماكن ثلاثة: إمَّا في الخلاء يرعى الأغنام، وإمَّا في التجارة مسافراً مع القوافل، وإمَّا في المجتمع العام مع رؤساء القبائل؛ فلا خلقه ولا مولده ولا مشاغله تجعلنا نتصوره يتردَّد على هذه البيئة الهابطة. أما السبب الثاني، فهو أنه لم يكن لهذه العلاقة أية جدوى. فهؤلاء المطرودون لم يكونوا يجهلون دينهم فحسب، ولكن بصفة خاصة، كانت لغتهم الأجنبية حاجزاً طبيعياً أمام النبي. هذا إلى جانب أنه لم يكن قد وجد في هذا الوقت توراة ولا إنجيل باللغة العربية[1]، يحتمل أن تكون تعاليمها انتقلت إليه شفاهة خاصة أنه كان أمياً من شعب أمي. وأميته هذه كانت دليلاً على ربانية التعاليم التي جاء بها.

أمَّا عن احتمال تأثره بالتعاليم المسيحية أو اليهودية، من خلال رحلاته التجارية إلى سورية واليمن، كما يذهب البعض، فإنه ـ مما يؤكده الكتاب ـ أن رحلات القوافل التجارية التي صاحبها الرسول لم تقده إلى أبعد من سوق حباشا وغراش باليمن. ولنفرض أنه اتصل بالفعل بالمسيحية في ذلك الوقت، فهل كان سيجد نموذجاً أخلاقياً ودينياً لأن ينقله أو يبني عليه نظامه الاصلاحي؛ بالقطع لا.

ولنستمع إلى ملاحظات بعض الكتاب المسيحيين؛ **ج. سال،** في مؤلفه «ملاحظات عن الاسلام، (ص ٦٨ - ٧١)».

«إذا قرأنا التاريخ الكنسي بعناية، فسنرى أن العالم المسيحي قد تعرَّض منذ القرن الثالث لمسخ صورته، بسبب أطماع رجال الدين والانشقاق بينهم، والخلافات على أتفه المسائل والمشاجرات التي لا تنتهي والتي كان الانقسام يتزايد بشأنها. وكان المسيحيون في تحفُّزهم لإرضاء شهواتهم واستخدام كل أنواع الخبث والحقد والقسوة قد انتهوا تقريباً إلى طرد المسيحية ذاتها من الوجود، بفعل جدالهم المستمر حول طريقة فهمها وفي هذه العصور المظلمة بالذات ظهرت بل وثبتت أغلب أنواع الخرافات والفساد...».

ولقد كتب **تايلور،** في كتابه «المسيحية القديمة»، (المجلد الأول، ص ٢٦٦) يقول: «إن ما قابله محمد وأتباعه في كل اتجاه، لم يكن إلاَّ خرافات منفّره ووثنية منحطة ومخجلة، ومذاهب كنيسية مغرورة وطقوساً دينية منحلة وصبيانية».

وإذا تركنا المجتمع المكي، وذهبنا لنتتبع إمكانية تأثر الرسول في مكان آخر ـ وهو مجتمع المدينة الذي هاجر إليه خاصة ـ وأنه صادف هناك طائفة منظمة دينياً، ولها كتابها المقدس، ألا وهم يهود المدينة. فهل سنجد في هذا الوسط الجديد فرصة سانحة لمثل هذا التأثر؟.

لنستعرض أولاً، الموقف عموماً بالنسبة لروح القرآن من اليهود، لكي نرى ما إذا كان القرآن يعتبرهم مثالاً صادقاً للفضيلة المنزلة من عند الله وبالتالي جديراً بالاتباع والتأثر، أم لا؟

من الغريب أن نلاحظ التعارض الصارخ بين موقف القرآن الدائم من المجتمع اليهودي، وموقفه من المجتمع المسيحي؛ فعندما يتكلم عن المسيحيين بصفة خاصة نجده، إذا لم يثن عليهم[٢]، فعلى الأقل يوجِّه إليهم بعض اللوم في لهجة مخفّفة نسبياً[٣]. ولكن الأمر ليس كذلك، عندما يتحدَّث إلى اليهود في ذلك العصر؛ فهم في نظر القرآن أناس لا يتبعون ما أنزل إليهم، وإنما يتبعون إلهام الشياطين[٤]. وعندما ألمح إلى ما أوقعه يهود اليمن في الماضي من تعذيب المسيحيين بنار الاخدود، انضم القرآن إلى صف المسيحيين، واعتبر هذه الجريمة تآمراً مع سبق الإصرار على الايمان الحق[٥].

وعندما انتقل القرآن إلى المدينة بعد ذلك، احتفظ بموقفه وعدَّد إدانتهم. فالذين تلقوا التوراة وحفظوا نصوصها لا يراعونها بإخلاص[٦]. وهم يتعاملون بالربا ويلجأون إلى حيل مختلفة لأكل أموال الناس بالباطل[٧]، واعتماداً على بعض الآماني والأوهام يستبيحون الرشوة والكذب[٨]. ويعتقدون أنه ليس عليهم حساب بشأن الطوائف الأخرى، ولا التزام بالعدل[٩] في معاملاتهم معهم.

أليس من الغريب أن نفترض أن هذا الشعب الذي يقف القرآن منه هذا الموقف ويحكم عليه هذا الحكم الصارم، يمكن أن يكون نموذجاً يحتذى به محمد ومصدراً لتعاليمه.

وبهذا يثبت لنا عقم وفساد الرأي القائل بأن التعاليم الاسلامية كانت حصيلة لما تأثر به الرسول ونقله من الديانة المسيحية أو اليهودية.

ـ أمَّا فيما يتعلَّق بالأمر **الثاني**، الذي ذكره السيد رودنسون آخذاً عن بوسكيه أن السند الوحيد الذي يمتلكه الاسلام يكمن في قوة شخصية محمد، فردُّنا على هذه النقطة يتلخَّص في كلمتين: إذا كانت قوة الإسلام راجعة إلى شخصية الرسول الفذَّة، فكيف استمر هذا الدين إلى اليوم، وما المبرر لدخول عديد من أصحاب الديانات الأخرى في الاسلام، وهم لم يشاهدوا محمداً ولا أحسوا بعظمة شخصيته؟.

● نعود بعد هذا، إلى ما ذكره السيد رودنسون بالنسبة للتصوُّر الثاني، القائل بأن لهذه الحركة دوافع غير دينية، وفيه يعرض لكل الكتابات التي كانت تدور حول هذا المعنى؛ فيذكر، أنه في القرن الثامن عشر جاء في مقالة ڤولتير عن الأخلاق مأساة محمد: إن نشاط نبي الاسلام كان بحركة طموح شخصي وقومي وإنه لجأ إلى الأساطير ليرضي غروره ويحقق نهمه للسلطة، وهذا ما كشفه ڤولتير عن أغراض محمد السرية التي أفضى بها إلى الزبير حاكم مكة، جاء فيها:

«إذا كنت سأجيب عن أحد غير الزبير فلن أتكلم إلاَّ عن أن الله هو الذي أوحى إليَّ. إن السيف والقرآن في يدي الدمويتين لأفرض السكون على بقية الانسانية. إن صوتي سيعلو على صوت الرعد، وسأجعل جباههم

تلامس الأرض، ولكني أتحدث إليك كإنسان وبدون إخفاء شيء. انصت فنحن على إنفراد إن لديَّ طموح وكل انسان له أيضاً طموحات بدون شك. فليس هناك مَلِكاً ولا كاهناً ولا رئيساً ولا مواطناً يمكنه أن يعرف مشروعاً في عظمة مشروعي. فلكل شعب دوره ليسطع نجمه على الأرض، إما عن طريق القوانين أو عن طريق الفنون أو بصفة خاصة عن طريق الحرب. ولقد جاء أخيراً دور الجزيرة العربية. فهذا الشعب الكريم قد ظل مجهولاً لأزمنة طويلة جداً متروكاً في صحرائه، مدفوناً مجده. وهذه هي الأيام الجديدة التي ترسم للنصر... وسترتفع الجزيرة العربية على أنقاض العالم. لا بد أن تكون هناك عبادة جديدة وأناشيد جديدة وإله جديد للعالم المضلَّل... ولقد أتيت بعد ألف عام لأغيِّر هذه السلطات الفجّة. وسأحمل نيراً أكثر نبلاً إلى الشعوب جميعها. وسألغي الآلهة الفاسدة. وعقيدتي الخاصة هي أن مولدي العظيم هو أدل درجات الاصلاح».

ونحن إذا نظرنا وحاولنا تقييم هذا الكلام سنجده تجميع مكثَّف لكل الافتراءات والأكاذيب التي يمكن أن تحاك عن نبي الاسلام، وإننا لو سألنا عن المصدر الذي استقى منه ڤولتير مثل هذه الرسالة فلن نجد جواباً، وهذا هو ما فعله السيد رودنسون، عندما طلبت منه في مقابلة معه عن مصدر هذه الرسالة، فلم يستطع أن يقدم وثيقة حقيقية في هذا. ولنا أن نتساءل أولاً: متى كتب الرسول هذه الرسالة إلى الزبير؟هل كان هذا قبل فتح مكة أم بعدها؟. إذا كان قبل الفتح فالديل التاريخي يُعد خصماً لهذا الكلام. فمحمد لم يكن له أصدقاء مقرّبون في مكة ليفضي إليهم بدخائل نفسه. إذ إن جميع المسلمين هاجروا معه إلى المدينة ولم يبق بها سوى أعدائه... أمّا إذا كانت هذه الرسالة بعد فتح مكة، فما معنى أن يتحدث عن طموحاته وخططه لتحقيق أهداف مستقبلية، وقد دانت له العرب جميعها ودخلت كل القبائل في الإسلام وأتم رسالته وأكمل دعوته.

ثم إنه إذا كان يسر إلى الزبير بحديث لا يريد لأحد أن يطلع عليه، فكيف تم له ذلك؟ إنه كان أمياً لا يكتب ولا يقرأ. إذن فلا بد من وجود كاتب له، والذين يعلمون القراءة في زمنه قلة، فكيف يأمن ألاَّ يفتضح سره إذا طلب من أحدهم أن يقوم له بتحرير هذه الرسالة؟. ثم منذ متى كان لمكة رئيساً أو حاكماً؟ إنها مدينة تضم مجموعة من القبائل، لكل قبيلة رئيس ولا يجمع هذه القبائل سلطة أو رئيس واحد، ولم يحدث هذا الأمر إلاَّ مع بداية ظهور الدولة السعودية في العصر الحديث.

ثم هل يعقل أن طموحه كان من أجل رفعة شأن الجزيرة العربية، حتى لو اقتضى الأمر أن يدمر العالم في سبيل ذلك ـ والجزيرة العربية هي التي آذته وبلغت في عداوتها له إلى حد تدبير قتله وآذت أصحابه ومن آمن به منهم وحاربته في كل موقع ومناسبة ـ فهل من أجل أعدائه تكون كل هذه الطموحات؟

ثم لماذا كل هذا العنت والإرهاق الذي يحمل به نفسه، فإنه من الثابت أنه عندما بدأ دعوته اجتمعت له القبائل

وعرضت عليه أن تجمع له من المال ما يجعله أكثرهم ثراء . وعرضوا عليه السلطة ، وأن يملّكوه عليهم لمقابل شرط واحد هو أن يدع أمر هذه الدعوة . فماذا كان ردّه؟ لقد قال : « والله لو وضعوا لي الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الدين ما فعلت . والله لن أدعه حتى يتم الله أمره أو أن أهلك دونه » . ثم ما هو هدفه من دعوته هذه : اخراج الناس من الظلمات إلى النور ، لا يطلب عن هذا أجراً ولا مقابل (فإن توليتم فما سألتكم من أجرٍ إنْ أجري إلاّ على الله وأُمرت أن أكون من المسلمين) [يونس ـ ٧٢] .

ننتقل الآن ، لنتابع ما ورد في المقال . ويدور حول معنى أن الحركة الاسلامية لها دوافع غير دينية ، فيذكر السيد رودنسون أنه كان علينا أن ننتظر حتى نهاية القرن (١٩) ، لنجد تجسيداً لنفس الاتجاه عند المستعرب الالماني **جريم** العالم البحاثة ، وإن كان من المعروفين بسماته المتهورة دائماً التي تميِّز نظرياته . ويُذكر أن جريم كان يريد توصيف الاسلام على أنه محاولة للاصلاح الاجتماعي . وكان يرى ببساطة أن محمداً كان يمتلك خطة للاصلاح الاجتماعي ، يريد بها من الأغنياء أن يدفعوا للفقراء . وأنه من أجل إخافتهم وإجبارهم أيضاً على الخضوع لمشاريعه ، فقد اخترع نظام ديني بأقل قدر ممكن من الأسطورة . وكتب أيضاً ، في هذا المعنى ، يقول : إنه علينا أن نعتبر أن الاسلام لم يظهر أصلاً على انه نظام ديني ، وإنما على أنه محاولة لها طابع اشتراكي تتصدَّى للعيوب الدنيوية المفرطة . ولقد اقترح محمد تنظيماً سلمياً للمشكلة الاجتماعية عن طريق ضريبة تُفرض على الأغنياء يستفاد منها في إعانة البؤساء .

ولكي يُحقِّق محمد فكرته ، خاصة وأن كلامه وتأثيره لم يكونا كافيين في هذا الصدد ، لذا فقد لجأ إلى الإكراه الروحي ، ـ وهي فكرة اليقين بالحساب الاخروي ـ كوسيلة للضغط عليهم ، حيث قَرَّر أن الأغنياء سيبدون فئة آثمة لا تستطيع مواجهة الحساب الأخروي إلاّ بتطهير نفوسهم عن طريق دفع ضريبة للفقراء ، وهذه الضريبة هي الزكاة وهي لفظ يعني التطهير[١٠] .

ثم يتابع **جريم** قوله فيذكر أن محمداً ، من أجل مذهبه العقائدي وميتافيزيقياته ، قد نادى بخطوط عامة للنزعة التوحيدية التي نشأت في الجزيرة العربية . وأنه لم يأخذ من هذه النزعة أكثر أو أقل مما يبدو ضرورياً من أجل تأسيس وتنظيم نظامه الاشتراكي .

ومن المثير أن نجد مرة أخرى أفكار جريم في كل تيار الفكر الاسلامي ، ولكن بالطبع تحت شكل ديني للغاية . ولأخوان المسلمون في الشرق الأقصى على سبيل المثال ، يعتبرون الاسلام نظاماً اجتماعياً كاملاً موحى من الله ، وأنه طريقة ثالثة بين الرأسمالية والشيوعية ، وأنه نموذج للانسانية جمعاء . وكون الاسلام نظاماً إلّهياً ، لا يمنع أنه يملك قواعد فائقة الحكمة للتنظيم الاجتماعي .

لقد استقبلت آراء جرم من الأوساط العلمية الاوروبية بفتور. وخصص عالم الاسلاميات الكبير Snouck Hurgsonje فصلاً رائعاً لتفنيد آرائه تلك، وأوضح أن النبي كان مخلصاً في حميته الدينية، وأن الشفقة التي أفاض جرم الحديث عنها كانت صفة لها طابع الرحمة وليست تقنيناً لنظام اجتماعي. وبالتأكيد كانت أغلب ملاحظاته صحيحة، وقد ظهرت أدلّته مناسبة للمستشرقين، وقد تابعه هؤلاء ـ بصفة عامة ـ ، وابتدأوا من هذا في الاقتصار على التركيز على النفسية الدينية لمحمد، وعلى التأثيرات الدينية التي عاناها.

وبعد هذا بقليل، كانت هناك معالجة جديدة للمشكلة ممتازة في تصوّراتها، وهي التي قدمها **مونتجومري وات** في كتابه عن الفترة المكية في حياة محمد، ذكر فيه أن الأيديولوجية المكية المعاصرة لمحمد، والتي بدأ نشاطه في داخلها، كانت في أساسها أيديولوجية بدوية، قامت على المثال الأخلاقي للصحراء الذي يسمى بالمروءة؛ وهذا المثال الاخلاقي كان الأساس الضروري الذي تستند عليه العصبية القبلية، تلك العصبية التي تؤيد ثأر الدم كوسيلة وحيدة لتأكيد السلام والأمن النسبي المحروم من وجود الدولة. والمروءة تستوجب الكرم وحسن الضيافة والاخلاص وفكرة الشرف، وكل هذا بعيداً من أي فكرة عامة لقانون مجرَّد، يفرض تشريعه على جميع أعضاء الجماعة. أمّا عن الدين فكان تأثيره عليهم ضعيفاً بصفة عامة.

ثم أصبحت مكة، بعد هذا بقليل، مركزاً تجارياً هاماً. وقد عاد عليهم هذا التحول بفوائد كثيرة ـ إذ أدت تلك الظروف الجديدة للتجارة إلى إثراء مكة وتطوّر بنائها الاقتصادي السائد في ذلك الوقت. وهذا التطور هو ما أسماه **وات** بالاقتصاد الرأسمالي.

وفي ضوء الظروف الجديدة لهذا المجتمع التجاري، فإن الأيديولوجية القديمة أصبحت غير ملائمة. فنجد الروابط القبلية قد انحلّت، وأصبح الثراء الفردي هو القيمة العليا بعد أن كانت القيمة العليا هي الانسان من أجل الانسان. ومال الأفراد للارتباط بما يتلاءم مع مصالحهم في هيكل البناء الاقتصادي الجديد، أكثر من ميلهم لانتمائهم القبلي. واتجهت العصبية القبلية نحو التلاشي شيئاً فشيئاً، تاركة الأفراد منعزلين عاجزين أمام القوى الاقتصادية الجديدة، وبدأت تظهر عناصر لأيديولوجية تتسم بالفردية بصورة أكبر. ولنا أن نتساءل هنا، عن قيمة المروءة، وهل أصبحت موضع ازدراء المكّيين الذين حققوا نجاحاً في هذه الظروف. بالتأكيد كانت هناك ثورة ضد القيم الجديدة، ولكن على مستوى الشعور العميق؛ فقد انتهى منذ الآن اعتبار أن النموذج المثالي القبلي هو ما يمكن أن يوجّه على أساس الانتقاد للآخرين. ولقد أوضح **وات** التوافق الايديولوجي للوضع الجديد، وحيث سلم محمد بفكرة الله، كما هو معروف، ولم يؤكد كثيراً على وحدانية الله ـ تلك العقيدة التي سوف يلعب المؤمنون بها دوراً في غاية الأهمية ـ ولقد أبرز بصورة جيدة رحمته وسطوته. فالله سوف يحاسب الانسان يوم القيامة فيثيبه أو يعاقبه. وعلى الانسان أن يعترف بفضل الله عليه وأن يعبده. ومحمد ليس إلا نذيراً يوحى إليه

من عند الله، ليحذِّر اخوانه في الانسانية .

وإن المكيين يعاب عليهم زهوهم وثقتهم التامة في قدرات الانسان، وإنهم أقل اعتدالاً بالنسبة لفكرة القدرة . وعليهم أن ينالوا رضا الله القادر على كل شيء ـ والذي يعتمدون عليه اعتماداً كبيراً على الرغم من كبريائهم ـ ؛ ولكي ينالوا هذا الرضا، عليهم أن يحسنوا استخدام ثرواتهم وأن يعطوا للفقراء وأن يتصفوا بالكرم . وهذا الكرم لم يعد من أجل إرضاء المثل القبلية، ولم يعد لإظهار التفاخر بالشرف، وإنما العطاء هنا من أجل غاية الحصول على رضاء الواهب (الله) . خاصة وأن كل إنسان سوف يحاسب عن نفسه بدون أيّ شفاعة ممكنة، وبدون النظر إلى أيِّ اعتبارات لصلاته الأبوية، على سبيل المثال . فالانسان، الذي أصبح التطوُّر الاقتصادي يعطيه قيمة اجتماعية، اكتسب أيضاً قيمة أيديولوجية .

وفي المدينة حل محمد أيضاً حلاً للمشاكل الصعبة للحياة المدنية، مشاكل تختلف عن مثيلاتها في مكة، ولكنه ربطها كذلك بتطوُّر نمط الحياة البدوية . وكان يعيش في تلك الواحة، التي يغطي النخيل جزءًا كبيراً منها، بدوٌ مستقرون، لا يميلون للترحال، ويهود، ومزارعون . وكانت هذه الواحة تتعرَّض لغارات تشنّها العشائر في غارات على النمط البدوي المعروف، مسببةً أضراراً جسيمة للرخاء العام . وكان يوجد هناك أيضاً تنافر بين الأشكال الجديدة للحياة الاقتصادية من ناحية وبين البناءات الاجتماعية السياسية من ناحية أخرى، وأيضاً بين الأيديولوجية التي تشكَّلت على أساس من النمط القديم للحياة البدوية .

وأصبح محمد هناك سيداً مطلقاً بدون سلطات رئيس دولة، بدون إدارة، بدون سياسة . سلطانه الوحيد يكمن فيما يتصف به، وفي موهبته التي ميزته عن أقرانه . لقد تحدث بكلام الله، وقاد الحروب على مسؤوليته الخاصة مع الناس الذين تبعوه من المهاجرين المكيين، الذين صاحبوه إلى المدينة **ومن أهل المدينة، ومن المتطوعين وغيرهم .**

وبهذه الوسائل الضعيفة أقام **مجتمعاً جديداً اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً، تفوّق على الجماعات الاصلية . وهذا** التجمُّع أو الأمة أخذ طريقه كأحد هذه الجماعات الأصلية، بوحدة سياسية لم يعرف مثلها **حتى هذا الحين** بالنسبة للجزيرة العربية، ولكنها كانت وحدة جديدة ذات نمط فريد، ولقد شرَّع محمد للأمة باسم الله . **إلاّ أن** هذا المجهود للتنظيم الاجتماعي كان مفككاً بدرجة كبيرة من الناحية الشكلية(١١) ، **فقد كان عبارة عن سلسلة من** الإجابات اليومية للتساؤلات التي تطرحها ظروف حياة هذه الجماعة الصغيرة .

ولنا تعليق على هذه العبارة الأخيرة التي أوردها **مونتجومري وات**، وهو أليس من البديهي **أن تكون تلك** الاجابات التي تردّ على هذه الأسئلة اليومية ـ مستندة إلى أساس ينظمها وتصدر عنه ويشكل **لها إطاراً له ملامحه،**

التي تتجه به نحو تنفيذ أهداف هذا النظام الجديد . ثم إن واقع الأمر، يخبرنا أن هذه التساؤلات كانت متعلّقة بمعرفة كيفيات أداء التكاليف الشرعية وموجباته . ولم تكن هي المنشئة لهذا النظام، لأن التساؤل في ذاته يوجب وجود نظام مسبق ليتساءل الناس عنه . إذ لو لم يكن هناك هذا النظام الذي دُعوا إلى اتباعه، فعن أي شيء يكون تساؤلهم؟ ثم ومن أجل أي شيء تركوا ما كانوا عليه؟ أليس من أجل شيء مختلف وله ملامحه المميزة!، وهذا هو التشريع الاسلامي الذي لم يضعه محمد من عندياته، لأنه لا يملك هذه الصلاحية . وكان لهذا التشريع جانبه العقائدي والتعبُّدي، وجانبه الآخر المنظِّم لحياة الجماعة الاسلامية تنظيماً كاملاً لجميع جوانب الحياة من اقتصادية وسياسية واجتماعية وأخلاقية وعقابية، يعتنقه الآن أكثر من (١٧٠ مليون) شخص من مختلف الجنسيات والشعوب ويتزايد عددهم باطراد .

نعود بعد هذا لاستكمال كلام « وات »، حيث يقرر أن محمداً جمع بين الاتجاهات الموجودة في ذلك الوقت، ووفّق بينها ووصل إلى نسق جديد . فعلى سبيل المثال، في مجال تأمين الحياة والملكية، أبقى على الثأر الخاص باعتباره الوسيلة الوحيدة للتنظيم، ولكنه أبقاه داخل حدود معيَّنة بحيث لا يشكل متاعب كبيرة أو طويلة الأمد تؤثر على السلام الاجتماعي . فالعقاب لا يجب أن يتجاوز المذنب، ويمكن أن يكون الثار عن طريق أخذ الدِّية، ولكنه لم يفتح الطريق لثأر مضاد . وفي مجال العلاقات الأسرية، فإن محمداً بذل جهوداً من أجل تأكيد حرية الاختيار عند النساء، لتفادي تعسف الرجال . وكان يريد أن يؤكد الخاصية الفردية الحقيقية للنَّسَبَ (لخط الأبوّة)، خاصة عندما محا كل حجة لشرعية التبنّي، وكان يريد ضمان مكانة كل المسلمين عن طريق زواج مستقر .

ويعلّق على هذا السيد رودنسون بقوله : وهكذا شرح « وات » باتفاق ـ مشجع من القرآن ـ ما يتعلق بتعدُّد الزوجات لأسباب متعددة، منها أن الرجال كان لهم سلطات متعسفة على النساء في حالة الفروسية . وقد شجع محمد نمط الزواج الفردي، أو حدَّد الزيجات المتعددة التي كانت متبعة في الجزيرة العربية في عصره؛ ولقد نظم بنفس الروح الطلاق . وفي مجال الميراث، فإن التنظيم القرآني كان يهدف إلى تحاشي أن تؤول الملكية للأقوى، من أجل مصلحة القبيلة كما كان شائعاً من قبل .

ويعقّب السيد رودنسون على هذا فيقول: هكذا شرح « وات » أسباب نجاح محمد أولاً في مكة، ثم في المدينة، مثلما شرح العوامل المفسِّرة للخطوط العريضة الموجهة للتنظيم الاجتماعي الذي أسسه .

ولكننا رأينا، أن الجزيرة العربية، في خلال بضع سنوات، تحوَّلت نحو نبي المدينة وتوحدت تحت لوائه . وفيما يتعلّق بتفسير أسباب هذا النجاح، فإن « وات » كان ضعيفاً بدرجة كبيرة .

فالانضمام للأمة الاسلامية، كان يؤمن السلام، كما يضمن وسائل الحياة عن طريق الغنائم التي تؤخذ من الكفار. وهذه الأمة على خلاف المسيحية، لم يكن بها أيٌّ نوع من أنواع العبودية لطاغية متباعد عنهم، هذا الوضع المهين الذي يخالف الحريات العربية. كما كان سلوك محمد معهم سلوك سيِّدٍ بدوي، وكانت القوة التي يعتمد عليها في النهاية تكمن في سموِّه الخلقي. هذا إلى جانب أنه كان يعامل أتباعه على قدم المساواة بكل اللطف والاحترام.

وكان من نتائج دخول الجزيرة العربية في أمة محمد أن وُجد سلام داخلي ونمو في السكان بالتالي، كما وجد جو من الثقة في إمكان التوسُّع مع وجود مواليد أكثر قوة؛ ويجب التنبيه على أن القرآن جاء بتحريم وأد البنات.

وإذا كانت أفكار «وات» تبدو لي صائبة ومثمرة في مجموعها، إلاَّ أنها تبدو لي ـ بالتأكيد ـ فيها بعض القصور الذي أظهره النقد.

ولقد أوضح مسيو **بوسكيه** أن مصطلح الرأسمالية غير ملائم لوصف البناء الاقتصادي لمكة في عصر محمد؛ ولقد انشغل بوسكيه بمسألة التعريف، وهو معذورٌ في تقريره هذا بالتأكيد، لأنه أعطى تعريفاً على النمط الماركسي.

وكيف كان الأمر، فإن هناك فريقاً من المكّيين يعيشون على الأرباح التي يحصلونها من الضرائب التي تفرض على القوافل في المسافات الطويلة. إذ كان هناك جماعات قد تكوَّنت لإمداد القوافل، وكان المساهمون في هذه الجماعات يحصلون على (٥٠٪) وتُعدُّ هذه النسبة لا قيمة لها، إذا قورنت بالتجارة في عصر الرأسمالية كما حدد بوسكين. وعلى أية حال، فهذا أمر غير ذي بال.

إلاَّ أنه من الواضح أن مكة كانت مركزاً تجارياً هاماً نسبياً، وأنها لا تستطيع أن تحيا على الزراعة، إذ إنها كانت تقع في أكثر الوديان جدباً. ولا يبدو أن موسم الحج وحده يستطيع أن يؤمن مصدرها في الرزق. ولهذا فقد عاشت بصورة أساسية تماماً على التجارة. ويمكننا أن ندّعي إذا أردنا أنه كان هناك نمط من الاقتصاد التجاري وليس الرأسمالي.

ويبدو لي، أن النقد الأكثر جدية الذي يمكن أن يوجه «وات» هو عن أسباب الانضمام الجماعي للجزيرة العربية، قد كانت بسبب محمد، فإن هذه التفسيرات غير متطورة بصورة كافية. وبالتأكيد، فإن هناك عديداً من العوامل تضافرت في هذا الأمر. وعلينا ألاَّ نأخذ في الاعتبار إلاَّ التطابق مع الأحداث السياسية الهامة: فإن جنوب الجزيرة العربية كان منطقة مختلفة تماماً عن بقية الجزيرة العربية، كان مركزاً للزراعات الجبلية وللتجار المنتفعين من المركز الاستثنائي الممتاز؛ إلاَّ أنه فقد استقلاله في ذلك العصر، حينما استعمر من الحبشة في العام

(٥٢٥)، ومن الفرس الساسانيين في العام (٥٧٢). وأرادت تلك القوى العظمى في ذلك الوقت (الحبشة كانت مرتبطة دينياً ودبلوماسياً مع بيزنطة)، أن تضمن السيطرة في الشمال عبر الطريق البري لتجارة الحرير، وفي الجنوب على الطريق البحري لمنتجات الهند وأفريقيا. ومن وقوعها على هذا الطريق الأخير، إلى جانب وفرة النباتات العطرية لديها ـ والتي يستخدمها سكان البحر المتوسط بكميات وفيرة ـ فإن جنوب الجزيرة العربية اكتسب غناه.

ويبدو أن تدهور جنوب الجزيرة أعطى أهمية أكبر لدور الوسطاء الحماة للقوافل ـ الذي كان يقوم به عرب الشمال والوسط ـ وكانوا يستطيعون بدون شك أن يطرحوا لحسابهم الخاص مشاريع، كانت المبادرة فيها حكراً حتى هذا الحين على عرب الجنوب. وهذا يجعلنا، بصفة جزئية، نفهم انطلاقة الاقتصاد المكّي بصفة خاصة، ونفهم أيضاً ازدياد الرخاء الذي عمَّ شمال الجزيرة العربية ووسطها معاً... وازدياد السكان، وانتشار الاقتصاد النقدي، ونمو الزراعة كما حدث بالمدينة... الخ. وهناك دور هام قد يكون اليهود المضطهدون من الامبراطورية البيزنطية قد لعبوه. وعلى أية حال، فإننا لاحظنا انطلاقة اقتصادية وتمهيداً لبناءات جديدة تخطت الاقتصاد القبلي.

ورغم ذلك، فقد كان هناك بعض التناقض: إن نمو تجارة رابحة يفترض وجود طرق مأمونة وبعض الاطمئنان الداخلي. ولكن الغزوات كانت تعتبر من وسائل التعيش العادية، بل والتقليدية، بالنسبة لقبائل الصحراء. إن التقدم الاقتصادي الذي سبقت الإشارة إليه لم تصل آثاره إلى جميع القبائل أو إلى جميع عناصر هذه القبائل. إن كثيراً من هؤلاء كان في مستوى من الفقر يجعله لا يستطيع العزوف عن ثمار الغزوات، وكان هذا الموقف يمثِّل عقبة بالنسبة للرفاهية الجماعية، إلاّ أن الغزوات الموجهة إلى الخارج كانت تعد أيضاً من وسائل التعيش التقليدية، التي كان من شأنها أن تزيل هذه العقبات. فالعرب البدو الذين كانوا يعيشون في بيئة جرداء، وكانوا دائماً ينظرون بطمع إلى الأراضي الخصبة في العراق ـ وتعد هذه الرغبة في تملك الأراضي الأخصب رد فعل عادي لدى الشعوب الفقرة. ففي كل زمان، وفي كل مكان ولا سيما في أقاصي الصين أو في عالم البحر المتوسط، كانت نفس الأسباب تنتج نفس الآثار ـ وقبل الاسلام، كان العرب قد دخلوا هذه الأراضي الخصبة التي كانت تجذبهم، وكوَّنوا فيها عدة دول يستوطنون فيها أو دول يحكم فيها البدو والشعوب الأصيلة، ومن هذه الدول **بالمير وحيرا وغسان...**

ولا يمكن القول إن أيَّ موقف تاريخي له حل واحد. ولكن إنشاء دولة جديدة ـ دولة عربية ـ كان الحل الذي يتوافق بالضبط مع الموقف المركب والمتناقض للجزيرة العربية. إن البدو كانوا مستعدين للولاء لدولة تعطيهم فرص الغزوات المثمرة، لأنها غزوات منظمة، بغزوات خارجية تسمح لهم بالتوفيق بين البحث عن غنيمة

وبين التجارة الرابحة؛ وكان يجب على هذه الدولة الجديدة أن يكون لها أيـديـولـوجيـة تـوحيـديـة تستجيـب لاحتياجات الضمير العربي، وتسمح للعرب أن يكتسبوا مكانة أيديولوجية يمكن مقارنتها مع غيرها من الامبراطوريات المجاورة.

وكانت دول جنوب الجزيرة العربية، قد حاولت من قبل توحيد الجزيرة العربية، واخضاع البدو لسيطرتها من تسهيل توسعهم التجاري؛ فهناك بعض الآثار المكتشفة حديثاً التي تؤيد وجهة النظر هذه، ولكنها لا تمدّنا بتفسير احتيـاج البـدو إلى الغـزوات المتكـرِّرة. فكـانـوا يخضعـونْ هـؤلاء البـدو وكـأنهم مستعمـرون لهم. فالايديولوجية التي كانوا ينشرونها في الفترة الأخيرة قبل الاسلام كانت أيديولوجية أجنبية، إما يهودية وإمّا مسيحية وإما مازدية.

أما عن الرسول محمد، فقد حقّق الوحدة غير المفروضة من الخارج، بل وحدة أساسها التعاقد الحر. وهكذا خضعت الجماعات العربية لله ولرسوله عن طريق اتفاقيات وليس عن طريق حروب. فكان هذا الأخير (طريق الحروب) يقدم لهم فرص الغنائم المربحة، على حساب غير المؤمنين في الخارج، وإخضاع اليهود والمسيحيين المقيمين في الجزيرة العربية، وذلك لصالح الجماعة الجديدة؛ فقد كان قريباً من البدو، لأنه من أصل قبائلي، لذلك كان يستطيع أن يفهمهم وأن يمدهم بالحلول المقبولة. أمدَّهم بأيديولوجية قومية تستطيع أن تشبع الكبرياء العربي، كما أمدهم بديانة عربية على مستوى الديانات الكبيرة الأجنبية؛ وكذلك كان يبرر عن طـريـق الإيمان المشترك وفكرة الحكم الذاتي على الفرد، فكرة تتعدّى آفاق قبيلة، سواء من الناحية الاقتصادية أم من الناحية السياسية.

ولا يسعنا بعد ذلك إلاّ تفسير أسباب الفتوحات؛ هناك تفسيرات عديدة حاولت التمييز بين الدوافع الاقتصادية والدوافع الدينية، إلاّ أن هذه التفسيرات تعتبر ساذجة إلى حد كبير؛ وذلك سواء على مستوى القيادات أم على مستوى عامة الشعب، والدليل على ذلك أن الايمان المسلم كان يمكن أن يعبِّر عن نفسه بطرق عديدة غير الفتوحات.

فإن تفسير أسباب القرار لدى القيادات، بل وأسباب نجاح القرار، كل ذلك يقر عملية اكثر تركيباً مّما يبدو لأول وهلة. ولا يمكن بهذه البساطة، تفسير الظواهر الاجتماعيـة بـالـرجـوع إلى المستـوى السيكـولـوجـي أو الميكروسوسيولوجي المتمثل في ضمير الأشخاص. فهناك بعض النصوص التي تؤكد على إيمان الفاتحين، في حين أن بعض النصوص الأخرى توضح شكوك بعض القيادات الأخرى في مبادىء الدين، بل وجشع بعض القيادات الأخرى. غير أن الفتح جذب الجميع، سواء المشككين منهم أم المؤمنين. فالمشاكل التي استطاعت أن تحلها الفتوحات كانت مشاكل اقتصادية اجتماعية، وليست مشاكل دينية.

أمّا عن أسباب نجاح الفتوحات، فإنه يرجع إلى حدّ كبير إلى الصدفة فإذا كانت الفتوحات قد نجحت، فيرجع ذلك إلى الظروف الخارجية المواتية، ولا سيما الظروف الموجودة في الامبراطورية البيزنطية والساسانية والتي أدّت إلى انهيارها أمام الغزو العربي في ذلك الحين. إن الغزوات العربية اتجهت نفس هذه الاتجاهات في أزمنة مختلفة، ولكنها أُوقفت. أمّا في هذه المرة، فقد استطاع العرب أن يتغلّبوا على كل المقاومات، واكتشفوا بالتدريج ضعف الدول الأعداء، وتقدموا في غزواتهم كلما سمحت لهم الفرصة.

وهناك مشكلة أيضاً لها أهميتها البالغة، وهي أن الاقتصاد النقدي أكد التباين الاجتماعي في الجزيرة العربية المعارضة للاسلام، خاصة في المدن التجارية والمناطق الزراعية. فقد كان هناك أغنياء وفقراء، سادةٌ وعبيد، ملاَّكٌ للأرض ومستأجرون لها. ومع ذلك، فكثير من القبائل أصبحت تحرس بناءً شائعاً للغاية. ولا يستغنى عن هذا، إلاّ في أن ضم ناتج العمل كان يؤدي عن طريق الطبقة المستفيدة إلى فائدة لطبقة معطلة. ويبدو أن الاسلام قد بشَّر بمسيرة إنسانية فيما يتعلّق بالعبيد، ولم يكن هذا قلباً للنظام الاجتماعي في عصره، ولم يكن أكثر من كونه دين عظيم. وقد حمل التشريع الاجتماعي القرآني حلولاً لمشكلات معيَّنة، أثارها هذا البناء الاجتماعي في صميم التطوّر. هذه الحلول تم تلقيها باستقبال مشجع للغاية. فهذا هو الذي حمل توازناً خاصاً بين الاتجاهات المتعارضة، وهذا هو أساس برهان «مونتجومري وات» الذي استعدناه آنفاً. ولكن هذا التواتر كان وقتياً. فالدولة في المدينة أصبحت تشكّل تجمُّعاً من أعداد من القبائل البدوية، ومن فقراء وأغنياء الحضر، ومن الملاَّك، ومن أصحاب الحظوة، وهؤلاء الناس ـ في أثناء الغزو ـ كونوا طبقة مستغلة لشعوب خاضعة. وكانت هناك مساواة معيَّنة، سادت بينهم على الأقل جزئياً، مع الفروق المتزايدة. والعبيد المسلمون المعتَقون اشتركوا هم كذلك في هذه المساواة.

والتجربة التاريخية، أظن أننا أشرنا إليها، على أن أيَّ انقلاب أيديولوجي أراده فرد أو جماعة، لا يمكنه النجاح إلاَّ إذا كان يمثّل إجابة لاحتياجات المجتمع في جملته. ودراسة هذه الضرورات تكون بالتالي ضرورية لفهم عمل وأفكار هذا الشخص أو هذه الجماعة. وعندما يُعطي الحدس رؤية، وعندما تمارِس الحوادث ضغطاً في اتجاه محدَّد للإجابة على احتياجات عميقة (Profonds) للواقع الاجتماعي، خاصة من أجل علاج تناقضات أساسية، فإن التطوّر يولّد عديداً من الحركات ذات الاتجاهات المتجانسة التي تبدأ في الظهور. والظروف التاريخية هي التي تفضل أحد هذه الحركات على الأخرى. وعبقرية الشخص، الذي يفهم الظروف بصورة أفضل من غيره، يستطيع أن يكون له تأثير قطعي؛ كما أن الصدفة يمكن أن تلعب دورها: فالحركات التي لقيت قبولاً أكثر، هي التي أجابت بصورة أفضل على الضرورات، بالإضافة إلى الفرص التي حصلت عليها.

ويمكن ذكر عديد من الأمثلة، خاصة في مجال التاريخ الديني، فمن المعروف أن المسيحية ظلّت لوقتٍ طويل

في حالة تنافس ومزاحمة مع الديانات والمذاهب الأخرى . وبالمثل، كانت أصول الاسلام، حيث كـان هنـاك أنبياء معاصرون لمحمد، وكذلك هذا الذي أسماه الكتَّاب المسلمون بمسيلمة، والذي كان من المحتمل أنه بدأ نبوءته قبل نبي مكة . وفي افريقيا السوداء، فإننا نجد بالفعل وضعاً يمكن مقارنته للغاية بجوانب معيَّنة كانت في الجزيرة العربية في عصر محمد، حيث أشار ج. **بلانديو** إلى أنه:

كيف شعر الأفارقة السود جيِّداً بضرورة إقامة وتبني أيديولوجية تتجاوز الايديولوجية القبلية، ولكن على أن تكون وطنية، حيث كان نجاح النبوءات التي حملت إلى السود الكرامة، وحلت أيضاً، على مقياس معين، مشاكلهم المادية، ووقفت في الوسط بين العبادات الوطنية القديمة وبين الايديولوجية المتعالية الخادمة لنموذج المسيحية المرفوض بأصله الاجنبي ولعلاقاته بالمصالح الأجنبية .

ويمكننا أن نتتبع على التوازي هذا، بين المورمونية (Mormonisme) والاسلام، ففي كلتا الحالتين، ظهرت إرادة وجود إلّهي عن طريق معلِّم الدين، فالله يشرِّع ـ عن طريق نبيه ـ لكل مجالات الحياة من أجل مجتمع للمؤمنين، سيصبح له ذاتيته السياسية والاقتصادية . . . إلخ . وفي نحو (١٨٣٠) في انجلترا الجديدة، حين لم تعد البروتستانتية الرسمية تشكِّل إجابة لكل الاحتياجات للوضع المتغير الذي بدأ يُظهر الاحتياجات الايديولوجية وغيرها . فقد ظهرت مذاهب في أعداد كبيرة لتقديم العلاج؛ وكانت محاولة **جوزيف سميث** التي وُجدت في ظروف سمحت لـه نجاح أفضل من غيره . وقدَّم أنصاره المورمونيون إطاراً أيديولوجياً واجتماعياً للمجتمعات التي استعمرت الغرب الأقصى . ولقد أعاقت الظروف التاريخية غير الملائمة نجاحاً لها أكثر تقدماً بعد النجاح الأولي لها . وهذه المعاصرة لعديد من الحركات المتنافسة في اللحظة التاريخية نفسها، تقود بالتأكيد إلى إنكار دور أو وجود شخصية مؤسس الاديان .

ونود، قبل أن ننهي هذه المقالة، أن نعلِّق على ما جاء بها من قول، يحاول إرجاع نجاح الدعوة الاسلامية إلى أنها كانت تشكل إجابة لاحتياجات مجتمع مكة في ذلك الوقت، وأن الرسول محمد استطاع أن يقف على هذه الاحتياجات التي كانت في أساسها احتياجات اقتصادية، لهذا كُتب لدعوته النجاح .

في الحقيقة، إن هذه الادعاءات ليس لها أيُّ نصيب من الصحة، ولا تقف كثيراً أمام النقد . فمن الحقائق المعروفة تاريخياً، ولا يجحدها إلاَّ مكابر، أن الدعوة الاسلامية لم يكتب لها النجاح في مكة؛ وإنما حوربت، وتعرّض الرسول وأتباعه من المسلمين للإيذاء الشديد، وحوصروا في شِعَب مكة ثلاث سنوات كاملة، لا يصل إليهم طعام أو شراب، إلا ما يتسرّب إليهم في غفلة من أهل مكة، حتى شارفوا على الهلاك . وغير هذا من صور الإيذاء المعروفة التي وصلت إلى حد التآمر على قتل الرسول محمد؛ فإذا كان هذا هو واقع الأمر الحادث، فكيف يجوز لأحد أن يعلِّل نجاح الدعوة الاسلامية بأنها جاءت استجابة للاحتياجات الاساسية لمجتمع مكة؟

هذا أمر. والأمر الثاني هل كان الرسول صلّى الله عليه وسلم، يملك من القدرات ما يمكنه من الوقوف على كل ما جاء من حقائق متضمنة في القرآن؟!. علينا أن ننظر في مدى إمكانية هذا؛ وعلينا أن نتذكر أن القرآن لم يحتوِ فقط على حلول اقتصادية، كما يُذكر دائماً، وإنما حوى العديد من الأمور العقائدية والتعبُّدية، إلى جانب تنظيم شامل لكل نواحي الحياة في المجتمع ـ من اقتصادية وسياسية واجتماعية واخلاقية وعقابية، داخل إطار يوضح فلسفة التشريع الاسلامي وركيزته الايمانية.

ولنا أن نتساءل: هل كان الرسول صلّى الله عليه وسلم، أهلاً ـ بمقتضى امكانياته الذاتية ـ لأن تجيش نفسه بتلك المعاني؟

في الحقيقة، سنذهب مع الدكتور عبدالله **دراز** إلى مناقشة هذا الاحتمال، من خلال ما جاء في كتابه «النبأ العظيم ـ (ص ٣٦ وما بعدها)» حيث يقول: ... إن في القرآن جانباً كبيراً من المعاني النقلية البحتة، التي لا مجال فيها للذكاء والاستنباط، ولا سبيل إلى علمها لمن غاب عنها إلاَّ بالدراسة والتلقي والتعلم. ماذا يقولون فيما قَصَّه علينا القرآن من أنباء! ما قد سبق وما فصّله من تلك الأنباء على وجهه الصحيح كما وقع؟ أيقولون إن التاريخ يمكن وضعه بأعمال الفكر ودقة الفراسة، أم يخرجون إلى المكابرة العظمى، فيقولون: إن محمداً قد عاصر تلك الأمم الخالية ـ لا نقول إن العلم بأسماء بعض الأنبياء والأمم الماضية وبمجمل ما جرى من حوادث التدمير في ديار عادٍ وثمود وطوفان نوح وأشباه ذلك يصل قط إلى الأميين. لأنها مما توارثته الأجيال وسارت به الأمثال وإنما الشأن في تلك التفاصيل الدقيقة والكنوز المدفونة في بطون الكتب، فذلك هو العلم النفيس الذي لم تنله يد الأميين وإنك لتجد الصحيح المفيد من هذه الأخبار محرراً في القرآن حتى الأرقام طبق الأرقام: فنرى مثلاً، في قصة نوح عليه السلام، في القرآن، أنه لبث في قومه ألف سنة إلاَّ خمسين عاماً وفي سفر التكوين من التوراة أنه عاش تسعمائة وخمسين سنة. وترى في قصة أهل الكهف عند أهل الكتاب: أنهم لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنة شمسية وفي القرآن انهم لبثوا في كهفهم (ثلاثمائة سنة وازدادوا تسعاً) وهذه السنوات التسع هي فرق ما بين عدد السنين الشمسية والقمرية. فانظر إلى هذا الحساب الدقيق في أنه أمين، لا تكتُب ولا تَحْسِب.

نعم إنها لعجيبة حقاً. رجل أميٌّ بين أظهر قوم أميين، يحضر مشاهدهم ويعيش مشغولاً يرزق نفسه وزوجه وأولاده. راعياً بالأجر أو تاجراً بالأجر، لا صلة له بالعلم والعلماء. يقضي في هذا المستوى أكثر من أربعين سنة من عمره، ثم يطلع علينا فيما بين عشيةٍ وضحاها. فيكلمنا بما لا عهد له في سالف حياته، وبما لم يتحدث إلى أحد بحرف واحد منه قبل ذلك، ويبدي لنا من أخبار تلك القرون الأولى ما أخفاه أهل العلم في دفاترهم. أفي مثل هذا يقول الجاهلون إنه استوحى عقله واستلهم ضميره؟!.

فالحقيقة التي لا جدال فيها، أن البناء التاريخي في القرآن سبيله النقل لا العقل، وأنه يجيء من خارج النفس لا من داخلها.

وإذا نظرنا إلى جانب آخر ممّا جاء في القرآن، خلاف النواحي التاريخية، وليكن جانب العقائد الدينية. ويكون من الممكن الوصول إلى تلك الحقائق الواردة في القرآن عن طريق النظر العقلي. إن معرفة الله سبحانه وتعالى وتوحيده، ليست هي كل العلم الديني الموجود في القرآن؛ الطريق الموصل إلى هذا العلم طويلٌ ومتعثّر، إن لم يكن مغلقاً ومسدوداً أمام عقل الانسان في حالة اعتماده على إمكانياته المحدودة؛ وبأي إلهام إذن استطاع محمد أن يكتشف صفات الله العديدة، وأسماءه الحسنى، وعلاقة الله بالكون المنظور وغير المنظور، والمصير الذي ينتظر الانسان بعد الموت؟! من غير أن يتراجع في حقيقةٍ سبق أن أعلنها، ومع احتفاظه في نفس الوقت بتوافقه العجيب مع حقائق الكتب السماوية السابقة والمحفوظة بعناية تحت يد العلماء؟! ولا شك، أن العقل مهما بلغ من السناء والقوة، لا يستطيع أن يخطو خطوة واحدة في هذا السبيل، بمثل هذه الثقة وهذا الوضوح، ما لم يكن له عونٌ ومددٌ من تعاليم إيجابية خارج نطاق البشر. والقرآن يؤكد هذا في تلك النقطة التي تشغلنا، ويقرر أن محمداً عليه السلام لم يكن يدري قبل نزول الوحي **(ما الكتاب ولا الايمان)** [الشورى ـ ٥٢]، وذلك بصرف النظر عن البناء التشريعي بمظاهره المختلفة والكيفية التي بها نعبد الله، وما هي قاعدة السلوك الأمثل للفرد والمجتمع والانسانية، فقد كان محمد يجهل كل ذلك. فهل كان في استطاعته هداية غيره، بينما كان عاجزاً عن هداية نفسه في أمور دينه؟ **(ووجدك ضالاً فهدى)** [الضحى ـ ٧].

الحواشي

(١) (لم يظهر الكتاب المقدس باللغة العربية إلاّ بعد ذلك بقرون عديدة، ولم تكن الحاجة ملحة لإنجيل باللغة العربية إلاّ في القرنين التاسع والعاشر، [مجلة العالم الاسلامي باللغة الانجليزية ـ ابريل ١٩٣٩؛ مقال (مس بادوبك) عن أصل الترجمات العربية]. كذلك يقول القس شيدياك، بأنه لم يتمكّن من الرجوع بتاريخ أقدم ترجمات العهد الجديد باللغة العربية إلى أبعد من القرن الحادي عشر، [انظر شيدياك ـ دراسة عن الغزالي (الفصل السابع) ـ هامش مأخوذ عن د. عبدالله دراز، في كتابه «مدخل إلى القرآن الكريم»، ص ١٤١].

(٢) (... ولتجدنَّ أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنَّا نصارى ...) [المائدة ـ ٨٢].

(٣) (ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظّاً ممّا ذُكّروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله ما كانوا يصنعون) [المائدة ـ ١٤].

(٤) (تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزيّن لهم الشيطان أعمالَهم فهو وليُّهم اليوم ولهم عذاب أليم) [النحل ـ ٦٣].

(٥) (قتل أصحاب الاخدود) [البروج ـ ٤ والآيات التالية].

(٦) (مثل الذين حُمِّلوا التوراة ثم لم يحملوها كَمَثَلِ الحمار يحمل أسفاراً . . . » [الجمعة ـ ٥] .

(٧) (وأخذهم الرِّبا وقد نُهُوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل . . .) [النساء ـ ١٦١] .

(٨) (فويلٌ للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً . . .) [البقرة ـ ٧٩ ، والآية التالية] .

(٩) (من أهل الكتاب مَن إن تأمنه بقنطار يُؤَدِّهِ اليك ومنهم مَنْ إن تأمنه بدينار لا يؤدّه إليك إلاّ ما دمت عليه قائماً ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميّين سبيلٌ ويقولون على الله الكذبَ وهم يعلمون) [آل عمران ـ ٧٥] .

(١٠) المعنى اللفظي لمعنى الزكاة هو النماء . ويبدو أن المعنى اختلط على الكاتب من خلاله القولة القرآنية : (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتذكيهم بها) التي تعني هنا ليس بالدقة ما قصده الكاتب من كلمة التطهير .

ولنتساءل أولاً عن ماهية العلاقة بين نزعة التحنُّف التي كانت سائدة في الجزيرة العربية وبين هذا النظام الاشتراكي المزعوم، الذي يدّعي جريم أن الرسول قد أسسه ، حتى إلى فرض تسليمنا بأن ما جاء به كان نظاماً اشتراكياً ، والواقع بالطبع غير ذلك؛ ومن المعروف والثابت تاريخياً أن الحنفاء كانوا فئة ضئيلة العدد تعدعلى الأصابع ، كانوا يتطلعون إلى دين صحيح حاولوا التماسه خارج محيطهم الوثني الجاهلي ، ولم يكن عندهم أيّ فكرة دقيقة أو واضحة .ولقد اعترف زيد بن‌عمرو بن نفيل ـ أكثر هذا الفريق حزماً واستقلالاً ـ أنه كان يجهل كيفية عبادة الله .

وكل ما يمكن استخلاصه من وجود هؤلاء الحنفاء ـ وهو ما صرح به وات ذاته عن حق ـ أنه كان يوجد في ذلك الوقت نوع من القلق والانتظار المبهم الذي كان يتفاعل في هذه النفوس الممتازة، نتيجة مشاعر وتوقّعات ورغبات غير محددة . فما هي تلك العلاقة التي تربط أفكار هذه الفرقة ، وتصلح لتكون أساساً يأخذ منه الرسول المبادىء اللازمة لتأسيس مذهب اشتراكي ، كما يدّعي السيد جريم؛ هذا إلى جانب أنه لم يقدّم لنا دليلاً واضحاً يثبت به هذا التأثر .

(١١) إننا نوجّه سؤالاً : هل لو كان الأمر كما يذكر « وات » ، كان هذا التنظيم استمر حتى الآن ، وأصبح اتباع هذا النظام حوالى (١٧٠ مليوناً) من البشر ، من مختلف الجنسيات والشعوب ، ويتزايد بصورة مضطردة؟ .